مجلة التراث

J-ALT

2018/ Vol:8 N°01

Available online at: http://www.asjp.cerist.dz

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/323

أبو راس النّاصري
في كتابات أبي القاسم سعد الله

الدكتور: **يوسف ولد النبية**، جامعة معسكر. الجزائر.

مجلة التراث، العدد 29 / ديسمبر 2018، المجلد الأول الجزء الثاني

لتوثيق هذا المقال:

يوسف ولد النبية، أبو راس النّاصري في كتابات أبي القاسم سعد الله، **مجلة التراث**، العدد 29، المجلد الأول، ديسمبر 2018.

تاريخ الإستقبال: 2018/11/21

تاريخ التحكيم: 2018/12/15

تاريخ قبول النشر: 2018/12/29

الملخص:

تناولت هذه الورقة البحثية شخصية أبي راس الناصري المعَسْكَري الجزائري في كتابات أبي القاسم سعد الله، من خلال خمسة عناصر رئيسة، تضمّنت جوانب مهمة في شخصية أبي راس؛ وهي مولده ونشأته، وموسوعيته، وشروحه الأدبية، ورحلاته، وتأريخه. وتُمثّل هذه الجوانب أهم المسائل التي تناولها أبو القاسم سعد الله عن هذه الشخصية في مختلف كتاباته؛ تأريخا ودراسة، لا سيما في موسوعتيه؛ "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، و"تاريخ الجزائر الثقافي". وقد عُني أبو القاسم سعد الله بشخصية أبي راس النّاصري عناية بالغة، على اعتبار أنّ أبا راس من أهم أعلام الجزائر في عهدها العثماني؛ فهو فقيه، ومفسّر، ومؤرّخ، وأديب، ورحّالة، وصوفي..، فضلا عن اشتغاله بالإفتاء والقضاء. من هنا كان الهدف من هذه الورقة هو إبراز دور أعلام الجزائر في الحركة الفكرية والثقافية في تاريخ الجزائر، لاسيما في العهد العثماني.

الكلمات المفتاحية:

أبو راس النّاصري؛ أبو القاسم سعد الله؛ موسوعيته؛ شروحه الأدبية؛ تأريخه؛ رحلاته

"Abou Ras En-nasiri dans les écrits d'Abou al Kassim Saadallah"

Résumé:

Nous essayons, dans cet article, de mettre en exergue la personnalité d'Abou Ras En-Nasiri al Mouaskari al Jazairi dans les écrits de l'historien algérien Abou al Kassim Saad Allah en abordant cinq éléments clés qui constituent les aspects les plus importants de sa personnalité.

Nous évoquons sa naissance, sa vie, sa formation encyclopédique, ses écrits littéraire, ses annotations historiques et ses voyages.

Spécialiste de l'histoire culturelle algérienne, Abu al-Qasim Saad Allah a réécrit l'histoire de cette personnalité et de son époque a travers l'étude de ces aspects marqueurs de sa vie culturelle et religieuse a travers ces différents écrits mentionnés et étudiés dans « L'histoire culturelle de l'Algérie" et dans "Recherches et opinions sur l'histoire de l'Algérie".

L'intérêt qu'a apporté Abu al-Qasim Saad Allah a cette personnalité montre bien la largesse de son rôle très important entant qu'écrivain, exégète, voyageur, mufti, homme de foi et soufi dans une période historique ou l'Algérie était sous l'égide de l'empire Ottoman.

Le but de cet article est de mettre en évidence le rôle du savant algérien dans le mouvement intellectuel et culturel de l'histoire de l'Algérie à l'époque ottomane.

mots-clés: Abou Ras En-Nasiri; Abou al Kassim Saad Allah; sa formation encyclopédique, ses écrits littéraire, ses annotations historiques; ses voyages.

تمهيد

يعدّ الشيخ أبو راس النّاصري المعَسْكَري الجزائري (ت1238هـ/1823م) -رحمه الله- من أعلام الجزائر في عهدها العثماني؛ فهو عالم موسوعي جمع بين العلوم الشرعية واللغوية والعقلية والتاريخية، فضلا عن قرظه للشعر.

لذلك فقد لقي هذا العلّامة عناية المؤرخين والباحثين الجزائريين وغير الجزائريين على السواء، ومن الباحثين الجزائريين الذين عُنوا بتراثه عناية بالغة المؤرخ الموضوعي، والأديب الموسوعي، الدكتور أبو القاسم سعد الله (1930-2013م) -رحمه الله-، الذي تناول شخصية أبي راس الناصري في أكثر من بحث، ترجمة وتأريخا ودراسة، لا سيما في موسوعتيه؛ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، وتاريخ الجزائر الثقافي.

من هذا المنطلق، ابتغينا أن يكون عنوان هذه الورقة البحثية "أبو راس الناصري في كتابات أبي القاسم سعد الله"، التي قسمناها إلى خمسة عناصر، تتضمن جوانب عن مولده ونشأته، وموسوعيته، وشروحه الأدبية، ورحلاته، وتأريخه، وتمثّل هذه الجوانب في مجملها الخطوط العريضة لشخصية أبي راس الناصري، كما تمثل في الوقت ذاته أهم المسائل التي تناولها أبو القاسم سعد الله عن هذه الشخصية في مختلف كتاباته. وهدفنا من هذه الورقة هو إبراز دور أعلام الجزائر في الحركة الفكرية والثقافية من تاريخ الجزائر، لاسيما في العهد العثماني.

1-أبو راس الناصري: المولد والنشأة

تحدّث أبو القاسم سعد الله في أبحاثه المختلفة عن حياة أبي راس الناصري إجمالا وتفصيلا؛ من حيث مولدُه ونشأته وشيوخه، والأحداث التي عاصرها في بلاده وفي العالم الإسلامي، ورحلاته، ومؤلفاته.. فأما مولده فقد ذكر أنه كان سنة 1165هـ بنواحي جبل كرسوط (بالتحديد بمنطقة وَزَّغْت التابعة لبلدية وادي التاغية بولاية معسكر، غرب الجزائر العاصمة). وأما نشأته فكانت في بيئة فقيرة، ثم رحل به والده إلى نواحي متيجة، قرب مدينة الجزائر، وهناك فقد والدته، ثم انتقل به والده إلى مجاجة (التابعة لولاية الشلف) حيث كان والده يعلم القرآن. وبعد وفاة والده كفله أخوه عبد القادر وأخذه معه إلى "المغرب"، ثم عاد أبو راس إلى معسكر بشيء من العلم، ليتتلمذ على الشيخ عبد القادر المشرفي، ولما أحس أبو راس بشيء من الاستقلال العلمي خرج إلى الريف، فتزوج هناك، وبدأ ينشر علمه، كما تولّى القضاء في بعض مناطق غريس، وقد دام على هذه الحال سنتين فقط، ثم عاد إلى معسكر ليستقرّ بها ستا وثلاثين سنة، وفيها انتصب للتدريس والفتوى.. وكانت وفاته سنة 1238هـ/1823م.[1]

ويستوقفنا من حديث سعد الله عن مولد أبي راس ونشأته -الذي اقتضبناه حسبما يدعو إليه المقام- ثلاث مسائل:

أولها: أنّ سعد الله قال عن نسب أبي راس: "بعض المؤلفين يقول (الناصري) بالنّسبة رغم أنّ سلسلة نسبه التي كان حريصا عليها تذكره (الناصر) فقط بدون نسبة".[2] مستندا إلى سلسلة نسب أبي راس التي ذكرها في فتح الإله: "وأما نسبي فأنا عبد ربي محمد أبو راس بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر.."[3] بيد أننا نجد أبا راس نفسه قد أثبت

اسمه بالنِّسبة (الناصري) التي ترجع إلى جده الرابع (الناصر)، في غير موضع؛ من ذلك قوله عن جدّه: "ولهذا القطب نسبتنا الناصرية، وعمدتنا الهاصرية"،[4] وقوله متحدثا عن نفسه: "ومؤلف هذا الكتاب محمد أبو راس الناصري وفقه الله"،[5] هذا فضلا عن تسميته أحد شروحه الثلاثة على المقامات الحريرية بـ"الفتوحات الناصرية بمفتاح العلوم الحريرية". وهذه الأدلة كافية بالقطع بأنّ اسم شهرة أبي راس من الناصري كنِسبة، لا من الناصر كنَسب.

وفي سياق الحديث عن نَسب أبي راس، نشير إلى أنّ سعد الله قد شكك في انتماء أبي راس إلى النسب الشريف، دون أن يذكر دليله في هذا التشكيك، وذلك حينما قال: "ولكن إذا كنا لا نشك في موهبته كنسابة، فإننا نشك في نسبته إلى الشرف"![6] هذا مع أنّ أبا راس ذكر أنّ عالمين جليلين شهدا له بانتمائه إلى النسب النبوي؛ هما الشيخ المصطفى بن مختار (جد الأمير عبد القادر) والشيخ عبد القادر بن السنوسي.[7] فالأصل في الخبر التصديق، ما لم يثبت العكس بدليل. وممّا عقّب به الشيخ عابدين بن حنفية في مسألة الانتماء إلى النسب الشريف "أنّ الناس مصدَّقون في أنسابهم، وأمرهم إلى الله".[8]

وثانيها: أنّ سعد الله لم يخل كلامه من الاضطراب حينما ذكر المدة التي عاشها أبو راس؛ فقد ذكر –في الموضع المتقدم– أنّ أبا راس ولد سنة 1165هـ وتوفي سنة 1238هـ، وعلى هذا التاريخ فإنه يكون قد عاش ثلاثا وسبعين سنة، وذكر في موضع آخر أنّ أبا راس قد "عاش في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر الميلادي. وقد مات أبو راس الناصر سنة 1823 عن عمر يناهز التسعين سنة"![9] واستنادا إلى هذا التاريخ فإن المدة التي يكون أبو راس قد عاشها هي أيضا ثلاث وسبعون سنة لا تسعون سنة كما ذكر. والذي ذهب إليه غيره من المحققين هو أنّ أبا راس عاش فوق التسعين كالحفناوي،[10] والشيخ الهاشمي بن بكار،[11] كما ذهب محقق كتاب "فتح الإله" محمد بن عبد الكريم إلى أنه ولد سنة 1150هـ/1737م وتوفي سنة 1238هـ/1823م،[12] وعلى هذا الاعتبار يكون قد عاش ثماني وثمانين سنة. وقريبا منهم ذهب الشيخ عابدين بن حنفية، الذي رجح أنه يكون قد ولد بعد سنة 1150هـ بقليل.[13]

وثالثها: أنّ سعد الله فهم كلمة "المغرب" في قول أبي راس عن أخيه الأكبر: "فأخذنا بعد موت أبينا وانقلب بنا إلى المغرب"[14] على أنها المغرب الأقصى. غير أنّ محقق كتاب "فتح الإله" ذكر أنّ المقصود بالمغرب ههنا هو "غرب القطر الجزائري، مثل إقليم أم عسكر ووهران"[15] لا المغرب الأقصى. وتبعه في ذلك من كتب عن حياة أبي راس –وهو الشيخ عابدين بن حنفية– الذي رأى أنّ حمل سعد الله كلمة "المغرب" على المغرب الأقصى هو وهم منه، والقرينة التي دلت على أنّ المقصود بـ"المغرب" الغرب الجزائري هي كلمة "انقلب بنا" يعني: رجع.[16]

على أنّ هذه الملاحظات اليسيرة لا تُنقص من عمل الأستاذ المؤرّخ أبي القاسم سعد الله في شيء؛ فالرجل قد أفنى من وقته قسطا كبيرا في البحث والتنقيب في سيرة ومسيرة أبي راس الناصري، وممّا صعّب من عمل سعد الله قلّة المطبوعات؛ سواء التي ألّفها أبو راس نفسه أو التي كُتبت عنه، فضلا عن مشقة التنقلات التي تكبّدها سعد الله في أبحاثه حول هذه الشخصية.

وأما شيوخ أبي راس فيتقدمهم الشيخ عبد القادر المشرفي بمعسكر، كما درس على مشايخ آخرين ذكرهم في ثبته ورحلته،[17] وقد تتلمذ على بعضهم في معسكر والمغرب والجزائر وقسنطينة، منهم أحمد بن عمار مفتي مدينة الجزائر، كما تتلمذ على آخرين حين توجه إلى الحج مرتين؛ في مصر وتونس والحرمين، منهم محمد مرتضى الزَّبيدي بمصر، الذي خصه أبو راس بكتاب سماه "السيف المنتضَى فيما رويته بأسانيد الشيخ مرتضَى". وقد أخرج أبو راس عددا كبيرا من التلاميذ أبرزهم الشيخ أبو حامد المشرفي.[18]

وأما الأحداث التي عاصرها أبو راس فمنها "حملة أوريلي وحملة اللورد اكسموث الأوروبيين على الجزائر، وفتح وهران الثاني، وثورة درقاوة ضد العثمانيين، أما بالنسبة للعالم الإسلامي فلنذكر ظهور الدعوة الوهابية والحملة الفرنسية على مصر وصعود محمد علي، وبداية الإصلاح في الدولة العثمانية، وقد أثرت هذه الأحداث على مزاجه وأحكامه".[19]

وقد دفعت الأحداث المذكورة بأبي راس إلى التأليف فيها والتأريخ لها؛ من ذلك قصيدته السينية "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية"، التي أنشأها إثر فتح وهران سنة 1205هـ/1790-1791م، وقد وضع لها أكثر من شرح -وسيأتي الحديث عن تلك الشروح-، كما تحدث في شرحه الثالث للقصيدة عن الحملة الفرنسية على مصر والشام.. ومن ذلك أيضا كتابه "درء الشقاوة عن حروب درقاوة"؛ وقد تحدث فيه عن الحروب التي كانت بمنطقة معسكر بين الدرقاويين (أتباع الطريقة الدرقاوية) والأتراك بالجزائر، حينما فترت العلاقة بينهما..

2- أبو راس الناصري العالم الموسوعي

عاش أبو راس في عصر العلماء الموسوعيين الذين نبغوا في أكثر من فنّ، كالسيوطي (ت911هـ) والمقَّري (ت1041هـ) وغيرهما من العلماء الذين أُطلق على عصرهم "عصر الموسوعات". لذلك فليس غريبا أن ينحو أبو راس نحوهم في هذا المجال. وقد استرعت ثقافة أبي راس الموسوعية سعد الله حينما قال: و"قد أكثر من التآليف كثرة لا يضاهيه فيها من الجزائريين أحد حسب علمنا باستثناء أحمد البوني الذي تجاوزت تآليفه المائة".[20]

وقال في موضع آخر: "كتب أبو راس أكثر من غيره من الكتاب الجزائريين، ورغم أنه ألف تقريبا في كلّ فرع من العلوم المعروفة في وقته فإنّ أغلب كتبه في التاريخ والأنساب والأخبار، وقد ذكر هو نفسه في رحلته ثلاثة وستين كتابا بين صغير وكبير وقسمها إلى ثلاثة عشر قسما مبتدئا بالقرآن ومنتهيا بالشعر، ونسب إليه بعضهم 137 كتابا".[21] ومدار كتب أبي راس على العلوم الشرعية (كالقرآن والحديث والفقه) واللغوية (كالنحو والبيان والعروض) والعقلية (كالمنطق) والتاريخية (كالتاريخ والأنساب)، الأمر الذي يجعله يتصدّر قائمة المكثرين في التأليف في الثقافة العربية الإسلامية.

وقد عدّد سعد الله كتب أبي راس التي ما يزال معظمها مخطوطا في مكتبات عربية وغربية، مستغربا كيف أنّ كتبه تُرجمت ونشرت بالفرنسية بينما لم تنشر إلى الآن بالعربية.[22] ومن الأجانب الذين ترجموا بعض كتبه ونشروه المترجم العسكري "أرنو" الذي ترجم "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" إلى الفرنسية ونشره سنة 1885م بالجزائر،[23] كما ترجم له الجنرال "فور بيقي" قصيدة "الحلل السندسية" ونشرها بالجزائر أيضا سنة 1903م.[24]

بيْد أنّ سعد الله لم يغفل جهود محمد بن عبد الكريم في تحقيقه لـ"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" سنة 1982، وإن كان المحقّق –حسب سعد الله– قد تأخر في نشر هذا الأثر؛ "لأنّ أبا راس في الواقع من أهمّ مؤلفي العهد العثماني وإذا عُرفت جميع آثار أبي راس ودُرست دراسة علمية فقد تضاهي أو تفوق آثار أحمد المقّري أهمية".[25]

وقد تتيح موسوعية أبي راس للباحثين ذوي التخصصات المختلفة أن يتناولوا هذه الشخصية من أكثر من جانب؛ وذلك لكونه فقيها، ومحدّثا، ومفسّرا، ومؤرخا، وأديبا، ورحالة، وصوفيا.. ولعلّ هذا التناول المتخصص يضمن الإضافة النوعية للبحث الأكاديمي في الكشف عن جوانب مختلفة من شخصية هذا العالم الموسوعي، الذي ملأ الآفاق، وشغل الناس بعلمه وفضله.

3– أبو راس الناصري صاحب الشروح الأدبية

كان أبو راس من جملة الشارحين للأعمال الأدبية التي كان لها صدى في عصره، مما يدل على مقدرته اللغوية، فضلا عن حسه الأدبي والنقدي. وقد ذكر سعد الله أنه من عادة أبي راس أن يشرح العمل الواحد عدة مرات، ويطلق على كل شرح عنوانا جديدا، وهذا ما حدث في شرحه "للعقيقة" التي له عليها سبعة شروح، وكلّ شرح منها له عنوان خاص، ومن تلك العناوين "الدُّرّة الأنيقة في شرح العقيقة". ونجد أبا راس يذكر في أحد تلك الشروح فضل الشّعر وخصوصا الشعر الديني، وكان دافعه للتأليف أنّ المنداسي مدح بالعقيقة الرسول –صلى الله عليه وسلم–، ورغم أنّ العقيقة من الشعر الملحون فإنها "قد احتوت على غرائب وعجائب من اللغة والبلاغة واللّحون".[26]

ولأبي راس شروح أدبية أخرى، منها شرحه على مقامات الحريري الذي سماه "الحُلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية" وقد ذكر أنّ له شرحين من ذلك الكبير والأكبر، وشرح قصيدة الصيد المسماة "روضة السّلوان" وقد سماه "الشقائق النُّعمانية في شرح الروضة السّلوانية"، وله أيضا شرح أدبي لغوي لكتاب صغير في الحكم والمواعظ والآداب والأمثال لمسلم بن عبد القادر الذي طلب هو نفسه من أبي راس أن يضع لهذا الكتاب شرحا فسماه "إسماع الأصمّ وشفاء السّقم في الأمثال والحكم".[27]

وتتمثل طريقة أبي راس في شرح الأعمال الأدبية في أنه يورد البيت ثم يشرحه من جميع الوجوه، ويذكر أيضا الشواهد القرآنية والحديثية والشعرية أثناء الشرح. ومما قاله عن الدّرّة الأنيقة: "مباحث شريفة، ونكات لطيفة، وتحقيقات غريبة، وتدقيقات عجيبة". وعلى ذلك فقد عدّ سعد الله شرح أبي راس مصدرا من مصادر تاريخ النقد الأدبي في الجزائر، كما أن شروحه –بالإضافة إلى شروح معاصريه– تمثل شكلا من أشكال النثر الأدبي الذي شاع في العهد العثماني.[28]

ويُستفاد من هذا الحكم أنّ العهد العثماني يمثل مرحلة مهمة من تاريخ الأدب العربي في الجزائر؛ بمجاليه الإبداعي والنقدي، كما يعدّ المجال النقدي في ذلك العهد امتدادا للحركة النقدية التي كانت في عصر ابن رشيق المسيلي (ت456هـ)، وبمُكنة الباحثين اليوم تسليط الضوء على تلك المرحلة؛ لأنها تمثل مرجعية الجزائريين في مجالي الأدب والنقد معاً، فضلا عن مجالات أُخر..

4- أبو راس الناصري الرحّالة

كانّ أبو راس من الذين أكثروا التّرحال في بلاده وخارجها. فبالإضافة إلى تنقلاته داخل وطنه الجزائر، تجوّل في المغرب الأقصى عدة مرات، كما أنه حجّ مرتين على الأقل؛ الأولى كانت سنة 1204هـ والثانية كانت سنة 1226هـ، وأثناء حجتيه تجوّل في تونس ومصر والحرمين الشريفين وسورية والقدس.. وقد كان اهتمامه بالتاريخ والأنساب وحافظته القوية يساعدانه على التقاط ما قد يفوت الآخرين عن الأماكن التي زارها. كما كان في رحلاته يجادل ويسجل الحوادث ويروي العلوم ويطلع.[29] وقد كان أسوته في ذلك رحلة الإمام ابن رشيد السبتي، والخطيب ابن مرزوق، والعياشي، وأحمد بن الناصر، وغيرهم ممن ذكرهم في رحلته.[30]

وقد وَسَم أبو راس رحلته بعدة عناوين منها: "عدّتي ونحلتي في تعداد رحلتي" ومنها "فتحُ الإله ومنّتُه في التحدّث بفضل ربي ونعمته"، ومع أنّ كتاب "فتح الإله" يغطي -بأبوابه الخمسة- معظم رحلات أبي راس المغربية والمشرقية، فضلا عن رحلاته الداخلية، فإنّ الكاتب قد خصص الباب الثالث من هذا السِّفْر لرحلاته، سماه "في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما، ولقاء العلماء الأعلام، وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام". وقد ضمّنه الكثير من المسائل العلمية المختلفة؛ الفقهية، والعَقَدية، واللغوية، والفلسفية، الأمر الذي جعل رحلاته تعجّ بالمعرفة بشتى صنوفها..

والذي "يبدو أنّ أبا راس كان مهتما بالحديث عن العلماء الذين كانوا يجادلونه ويجادلهم ويجيزونه ويجيزهم أكثر من اهتمامه بالمعاهد والديار، والمشاهدات والأخبار، كما فعل العياشي والدرعي أو الورتلاني، ولذلك لاحظ بعضهم أنّ رحلة أبي راس لا تتحدث عن البلدان وإنما تتحدث عن الشيوخ الذين درس عليهم أو الذين لقيهم صاحبها، فهي بناء على رأي هذا الباحث (الجنرال فور بيقي) غير مهمة".[31]

وكيفما كان رأي هذا الباحث الأجنبي، فإنّ رحلات أبي راس -التي تشغل حيّزا كبيرا في سيرته الذاتية "فتح الإله"-[32] تعتبر مرجعا ثقافيا نفيسا، يصور لنا جوانب مختلفة من حياة المجتمع العربي الإسلامي في أواخر العهد العثماني، في المشرق والمغرب على السواء، فضلا على احتوائه على الكثير من المسائل الشرعية واللغوية وآراء العلماء المختلفة فيها، كما أنه يضمّ تراجم -على إيجازها- للكثير من أعلام ذلك العهد.

5-أبو راس الناصري المؤرّخ

لقد أسهم أبو راس إسهاما كبيرا في التأريخ لبلده الجزائر بخاصة، وللأمة الإسلامية بعامة، يستقي المعلومة من مظانّها، ويعاين الوقائع والأحداث، ويسمع الأخبار والروايات من أفواه الرجال، تحقيقا لصحة النقل، وتوخيا للأمانة العلمية. فلا غرو عندئذ أن يقول عنه سعد الله: "فقد كان على رأس المؤرخين إنتاجا وإدراكا لأبعاد الدراسة التاريخية".[33]

وقد ذكر سعد الله أنّ أبا راس كان يعايش أحداث عصره؛ فقد اعتبر أبو راس فتح وهران بداية لاسترجاع الأندلس، ولعلّ ذلك الفتح قد حمله -في بداية الأمر- على أن ينظر إلى آل عثمان على أنهم ما يزالون يواصلون رسالتهم التي جاؤوا من

أجلها. كما تحدث عن نابليون وعن الفرنسيين وعن الإنكليز والهولانديين.. "وهكذا يتضح أنّ مساهمة أبي راس في تاريخ الجزائر والتاريخ العام مساهمة عظيمة وأنّ آثاره جديرة بالدرس والنشر وأنّ شخصيته تحتاج إلى إظهار واعتبار يليقان به".[34]

وقد اعتبر سعد الله عنوان كتاب "زهرة الشماريخ في علم التاريخ" لأبي راس يدل على تخصصه بما يسمى اليوم (بالأستوريوغرافيا)، وأنّ ما ذكره في مقدمة كتابه "عجائب الأسفار" يبرهن على فهمه لدور التاريخ بين العلوم الأخرى ودور المؤرخ بين الكتاب الآخرين.[35]

ومن أهم كتب أبي راس التاريخية "الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية"، والواقع أنه عنوان جديد للقصيدة السينية التي أنشأها أبو راس إثر فتح وهران سنة 1205هـ/1790-1791م وقدمها للباي محمد الكبير، صاحب الفتح، ولكن الباي طلب منه شرحها لغموض عباراتها وصعوبة ألفاظها، فكتب أبو راس شرحا سماه "عجائبُ الأسفار ولطائف الأخبار" في جزئين، ثم شرحا ثانيا بالمغرب الأقصى سماه "روضة السّلوان المؤلفة بمرسى تطوان" أهداه للسلطان سليمان، ثم شرحا ثالثا سماه "الغرض المعرب عن الأمر المغرب عما وقع بالأندلس وثغور المغرب" ويغلب على الظن أنه كتبه بعد حجته الثانية سنة 1226هـ/1811.[36]

وقد اعتبر سعد الله تعدّد شروح أبي راس للمتن الواحد -كقصيدة الحلل السندسية- بمثابة تجديد الطبعة كلما وجد معلومات جديدة. فقد كان يسمي "الطبعة الجديدة" الشرح الثاني أو الثالث، كما كان يطلق على كل شرح عنوانا جديدا. ومثال ذلك أنه ضمّن حديثه عن الحملة الفرنسية على مصر والشام في الشرح الثالث للقصيدة المذكورة.[37] ويبدو من هذا الصنيع أنّ أبا راس كان دؤوب البحث، لا يكتفي بالمعلومة المتوفرة لديه، بل يجدّدها، ويضيف إلى بحثه معلومات أخرى كلما سنحت له الفرصة لذلك، وهذا دأب المحققين من أهل العلم..

ومن الأحداث التي تناولها أبو راس وأرّخ لها "الحملة الفرنسية على مصر والشام وآثارها على المجتمع الإسلامي. وخصوصا المجتمع المصري... وكانت له فرصة في الحجة الثانية، أن يشاهد بنفسه آثار الحملة في مصر والحجاز والشام، ويسمع عنها من أفواه العلماء وغيرهم، لذلك فإنّ حكمه صادر بعد مقارنته لأحوال المسلمين قبل وبعد الحملة".[38]

ومن أهم النقاط التي عالجها أبو راس في هذه الأحداث التخريبُ الذي أصاب مصر ويافا وصيدا وعكا نتيجة الحملة، وسلبُ الفرنسيين أموال الناس، وإثقالهم أهل مصر بالضرائب المتكررة، وإهانتهم للمساجد والمقدسات، وتفكك الأخلاق العامة (خصوصا فيما يتعلق بالمرأة).. كما اهتم بالمغاربة في مصر والحجاز أثناء الحملة، وخصوصا دور الشيخ الجيلالي المغربي الذي زحف "بجيش من الطلبة والعلماء من أرض الحجاز".[39]

وفي هذا السياق، عقد سعد الله موازنة بين أبي راس والجبرتي تحت عنوان "مؤرخ معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري"، ومما قاله فيها إنّ الجبرتي كان يؤرخ فاهتم بكل شيء تقريبا، أما أبو راس فقد كان يلخص ما جرى ويصدر حكما ضد الحملة، وكان ينظر إلى الفرنسيين بمصر والشام نظرته إلى الإسبان في وهران وسبتة ومليلية.. فكلهم في نظره معتدون يجب على أمراء

المسلمين جهادهم. كما كان أبو راس ثائرا على الأمراء الذين تهاونوا –في نظره– عن نصرة الدين وتخليص الأمة الإسلامية من الغزاة الأجانب، فاتباعهم للشهوات وتخليهم عن الجهاد أدى إلى وقوع مصر في يد الفرنسيين.[40]

ويتضح من الأحكام التي كان يصدرها أبو راس، سواء ضد الأمراء أو الغزاة، أنّ التأريخ عنده لم يكن منفصلا عن واجبه الديني، وإنما كان مرتبطا به أشدّ الارتباط؛ حيث يصعب الفصل في شخصيته بين المؤرخ والفقيه. ويبدو أنّ الموضوعية عنده سرعان ما تخالطها الذاتية؛ غير أنها ذاتية العالم الذي يعيش هموم أمته، والمثقف الذي يلتزم بقضايا مجتمعه.

ولا بأس أن نسوق في هذا المقام مقتطفا من نص أبي راس في الحملة الفرنسية على مصر، لنتبيّن طريقته في التأريخ:

"مالت ملوكُنا لحضيضِ راحتِهم *** وأكلونا كأكلِ الدّاجن العَلـــسِ

وأعرضوا عن جهادِ الكفرِ قاطبةً *** حتى ارتمتْ مصرُنا العظمى بمرمرسِ

الداجن: ماشية تُربّى في البيت، العلس: حب معروف، المرمرس: من أسماء الداهية. وأردنا بذلك ما عرض لمصر بعصرنا هذا في المحرم فاتح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف مع الفرانسة، فإنهم دخلوا اسكندرية عنوة ما بعدما أخذوا مالطة من يد النزايلية، وتخطوا إلى مصر..".[41]

ولوجود صلة وطيدة بين علم التاريخ وعلم الأنساب، فقد اعتنى أبو راس بالعلم الثاني عنايته بالأول، لذلك عدّه سعد الله من كبار النسّابة أيضا؛ حيث ترك مادة غزيرة في أنساب قبائل المغرب العربي ومواطن كلّ قبيلة وأصلها وفروعها. وقد لا حظ أبو راس في مقدمة كتابه "عجائب الأسفار" ضعف اهتمام علماء عصره بالنسب فقال: "إنّ امتياز النسب اندرس في هذا الزمان، فلا يكاد يتفق فيه اثنان... لاختلاط الأنساب وتباين الدعاوي". ويحتوي هذا الكتاب على معلومات قيمة عن أنساب القبائل في شمال إفريقية. وهو لذلك ما يزال مرجعا للباحثين..[42]

ومن كتب أبي راس في علم الأنساب التي ذكرها في فتح الإله "مروج الذهب، في نبذة من النسب، ومن انتمى إلى الشرف وذهب" وغير ذلك.. ومما ساعده في التمكن من هذا العلم حافظته القوية، واتصاله بالناس من خلال رحلاته المستمرة.

خاتمة:

لقد حاول أبو القاسم سعد الله في أبحاثه المختلفة أن يحيط خُبْرا بحياة وأعمال أبي راس الناصري؛ ترجمة وتأريخا ودراسة، معتمدا في ذلك على المخطوطات والمطبوعات، فضلا عن مشقة التنقلات، فكان له فضل كبير في تلك الأبحاث.

وقد تبيّن لسعد الله أنّ أبا راس عالم موسوعي حقيق بأن يُدرس من أكثر من جانب؛ فهو فقيه، ومفسّر، ومؤرخ، وأديب، ورحالة، وصوفي..، فضلا عن اشتغاله بالإفتاء والقضاء. وإذا ما دُرست تلك الجوانب دراسة وافية وشافية استطعنا أن نضيف تراثا ذا بال إلى المكتبة الجزائرية بخاصة، والعربية والإسلامية بعامة.

وقد بدا لنا من خلال هذه الورقة المقتضَبة، أنّ ثمة تشابها بين شخصيتي أبي راس الناصري وأبي القاسم سعد الله في أكثر من جانب؛ فكلاهما مؤرّخ، وكلاهما شاعر، وكلاهما موسوعي، وكلاهما رحالة.. وهذا التشابه هو الذي جعل أبا القاسم يتأثر بأبي راس تأثرا تجلى في أعماله المختلفة.

التهميش:

[1] تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830م)، دار الغرب، ط1، 1998، 377،378/2

[2] م،ن، 377/2

[3] فتحُ الإلهِ و مِنّتُه في التحدّث بفضل ربي و نعمتِه، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص25

[4] م،ن، ص27، الهاصرية قرية تقع على بعد 13 كلم غرب بلدية وادي التاغية، بولاية معسكر

[5] م،ن، ص156

[6] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007، 89/1

[7] فتحُ الإلهِ، ص29

[8] عابدين بن حنفية: أبو راس الناصري المعسكري، حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، مكتبة الرشاد، الجزائر، 1425هـ/2004م، ص22

[9] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 83/1.

[10] تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بييار فونتانة الشرقية في الجزائر، 1324هـ/1906، 333/2

[11] كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ/1961م، ص14

[12] فتح الإلهِ، المقدمة، ص12،13

[13] أبو راس الناصري المعسكري، حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، ص24

[14] فتحُ الإلهِ، ص19

[15] تعليق محمد بن عبد الكريم في "فتح الإلهِ"، ص33

[16] أبو راس الناصري المعسكري، حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، ص28

[17] خصّ أبو راس شيوخه بباب سماه: "في ذكر أشياخي، النافضين عني قشبَ أوساخي: شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"، أنظر: فتحُ الإلهِ، ص41 وما بعدها

[18] تاريخ الجزائر الثقافي، 378/2

[19] م،ن، 377/2

[20] أنظر: مقدمة أبي القاسم سعد الله لكتاب "فتح الإله"، ص5، وانظر: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 337/2

[21] ذكر هذا "فور بيقي"، أنظر: تاريخ الجزائر الثقافي، 380/2. وقد عدد أبو راس معظم كتبه في الباب الخامس من فتح الإله، سماه "العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز"، ص179 وما بعدها

[22] تاريخ الجزائر الثقافي، 380/2

[23] كانت ترجمة آرنو Arnaud بعنوان:

Voyages extraordinaires et nouvelles agréables, Récits historiques sur L,afrique septentrionale, Adolphe Jordan , libraire-éditeur, Alger,1885

[24] لأهمية هذه القصيدة تاريخيا قام الجنرال فور بيقي (faure-biguet) بترجمتها إلى الفرنسية –مع التعليق عليها– بعنوان: Les Vêtements de soie fine au sujet d,oran et de la péninsule espagnole، مطبعة بيير فونطانا في الجزائر، 1320هـ/1903م

[25] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 338،339/2

[26] تاريخ الجزائر الثقافي، 176/2

[27] م،ن، 177/2 وما بعدها

[28] م،ن، 177،182/2

[29] م،ن، 393/2

[30] فتح الإله، ص91

[31] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 186/1

[32] كتبنا عن "فتح الإله" بحثا عنوانه "السّردية عند أبي راس الناصري، من خلال فتح الإله"، في مجلة القلم، ع28، أبريل 2013، جامعة وهران، ونشرناه أيضا ضمن كتاب مشترك: "معسكر – المجتمع والتاريخ"، منشورات مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، وقد طبعته مكتبة الرشاد، الجزائر، ط1، 1434هـ/2014م، ص119 وما بعدها

[33] تاريخ الجزائر الثقافي، 376/2

[34] م،ن، 381/2

[35] أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 94/1

[36] م،ن، 301/2 وما بعدها

[37] م،ن، 301/2

[38] م،ن، 300/2

[39] م،ن، 302/2

[40] م،ن، 1/ 83-103

[41] م،ن، 303/2 وما بعدها

[42] م،ن، 93،100/1

المصادر والمراجع:

1-أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007م

2-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830م)، دار الغرب، ط1، 1998م

3-أبو راس الناصري: الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية، ترجمها إلى الفرنسية فور بيقي، مطبعة بيير فونطانا في الجزائر، 1320هـ/1903م

4-أبو راس الناصري: فتحُ الإلهِ و مِنّتُه في التحدّث بفضل ربي و نعمتِه، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م

5-الهاشمي بن بكار: كتاب مجموع النسب والحسب والفضائل والتاريخ والأدب في أربعة كتب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1381هـ/1961م

6-تأليف مشترك: معسكر – المجتمع والتاريخ، جامعة معسكر، مطبعته مكتبة الرشاد، الجزائر، ط1، 1434هـ/2014م

7-عابدين بن حنفية: أبو راس الناصري المعسكري، حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، مكتبة الرشاد، الجزائر، 1425هـ/2004م

8-محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبار فونتانة الشرقية في الجزائر، 1324هـ/1906م

9-Mohammed Abou ras en-nasri: Voyages extraordinaires et nouvelles agréables, Récits historiques sur L'Afrique septentrionale, Traduit par: Arnaud, Adolphe Jordan , libraire-éditeur, Alger,1885

كل الحقوق محفوظة